لم أصدق أنهم دخلوا وذبحوا كل هؤلاء الفلسطينيين

للمرة الثانية، أرى مشدوهة الى المقابلة مع اللبناني لقمان ومونيكا على شاشة «الجزيرة» في حوار حول فيلمهما عن «مجزرة صبرا وشاتيلا»، وتعاودني رغبة ما زالت تتضخم، الى كتابة شيء ما عما رأيت.

لا أريد لأحد أن يعتقد أنني فاقدة الحس الإنساني، أو شيء كهذا لأنني لم أبك حين شاهدت الى مقاطع من المجزرة في المقابلة عن الفيلم للقمان سليم إخراجا مع الألمانيين هـ. تايسون وم. بورغمان. لقمان يجيد تقديم ما هو بصدد تقديمه، أيضا مونيكا معنية بما تفعل، وحارة وذكية كما يجدر بسيدة أجنبية تهتم لشؤون عالمنا في نواحيه الكارثية. لست فاقدة للحس الإنساني. كنت مثلاً أثناء المشاهدة، أضغط على معدتي بيد، وأتشبث بالطاولة أمامي باليد الأخرى كما لو كنت أغرق. قد لا تبدو حركتي هامة، أو مغالية، ولكنها حركة تعني حياتي نفسها. عندما تضغط على معدتك وتتشبث بشيء، فقد داهمك لا بد، أمر مختلف يفترق عن البكاء. وعندكا تكون مع القتلة الحقيقيين (كما حدث فعلا) يروون لك المقتلة فأنت لا تكترث بالبكاء، فقط بيدك الصغيرة العرقانة، تسند رأس معدتك وتضغط على جانب صدرك الأيسر، لكي لا يفر شيء ما.

كان الوقت لا يزال مضيئا حين رأيت الى بعض مشاهد الفيلم. لا أدري كم كانت الساعة، ولكن الغرفة لم تكن معتمة، وأنا أكثر كثيرا أن أرى الى أحد يقتل أحدا آخر ولما يستره العتم بعد.

اختلطت الأمور عليّ بشدة لدى المشاهدة. كان يتحتم عليّ، على الأقل، مكالمة أحد أصدقائي بالتلفون. أعني لمجرد تهدئتي قليلا، وسؤاله حول المقتلة وهل حدثت فعلا كما يرويها القتلة الآن. تابعت المقابلة ومشاهد من الفيلم من دون أن أتلفن لأحد.

الرجل نصف العاري بقميصه التحتي الأبيض في الغرفة الضيقة المختنقة بضوء بنفسجي، يروي لنا إنه قتل: «الكبير والصغير والمقمّط بالسرير» على ما أمره آمره.

سوف أكون على ما يرام ـ قلت لنفسي ـ والورم في الجزء الداخلي من قلبي، ليس كبيرا جدا، وسوف ينتهي هذا العذاب في ظرف نصف ساعة، أو حالما ينتهي الفيلم. حين تلفن صديقي بعد دقائق، لم أجب. لم أرفع نظري عن المشهد. وفي نهاية الأمر سكت الرنين.

عدا القتلة، والذين لهم مظهر القوادين ويلاعبون قططهم بحنو، والكاميرا التي تعمل «زوم» على أجسادهم فنرى الى منابت الشعر في صدورهم وأكتافهم وظهورهم، كانت الشاشة خالية. أصوات القتلة فحسب، وكان بالإمكان سماع صوت الدم. إنه شيء مدمر للغاية، أن تكون حدثت أمثال تلك المقتلات كما قاربها لقمان، وكما يرويها القاتل أمامنا، المهووس.

هذا القتل

أفكر الآن، أن هذا القتل يفتن بعض المشاهدين، وأنا واثقة من هذا. يفتن بعض الحكام العرب، وبعض الساسة وبعض أصواتها التي تدعي ما هو مغاير لما تعتقده فعلا، ولا أعتقد أنهم يمانعون مثل هذا العبث المخيف. هذه المعرفة، معرفتي أشد كآبة من الفيلم نفسه.

كان أحد أولئك القتلة ـ الكاميرا لم تقارب الوجوه ـ لا يتوقف عن استعمال يديه في شروحات عيية تحاول الى إعانتنا على الفهم. يريدنا أن نفهم تماما كيف فعل كذا وكذا. أغلب الظن أنه تحت تأثير مخدر ما، ويقطن في مكان بعيد عن بيروت. غير أن صوته كان مؤلما تماما.

جلست ساكنة على كنبتي بعد أن انتهى العرض، أعني جلست على الكنبة دون أن أفعل شيئا، سمعت في الشارع ضحكا ضبعيا موجها ضدي شخصيا. لن أصدق أنهم دخلوا الى المخيم هكذا وذبحوا كل أولئك الفلسطينيين واللبنانيين. قال القاتل بأن الرجال البالغين احتاجوا وقتا أطول من الأطفال لكي يموتوا وتهمد أنفاسهم. المسألة عنده مسألة من أكبر ممن، وسوى ذلك. أنا أخمّن هذا الأمر الآن فلا تعني ملاحظتي أنني حضرت المقتلة ورأيت الى من كان يموت قبل الآخر، الكبار أم الأطفال أم النساء. كلا لم أكن هناك، كنت هاربة من الحرب اللبنانية الى ميركا.

القتلة إذن، ويعيشون ما زالوا بيننا. يتنفسون ولعلهم يحبون. ينامون ويأكلون، وبوصفهم لبنانيين الكبة والتبولة مثلنا تماما. يأكل واحدهم كبة وتبولة وكان جرّح بسكينه عين الطفل الفلسطيني ذاك، وبطنه وقلبه. السكين أحسن من المسدس ـ كان القاتل الراوي يروي ـ ويعذب ويوجع ويميت ببطء، وأحسن بكثير من المسدس فهو «يفش الخلق».

الكاميرا في مقاربة غير المتوقع، الوحشي والبهيمي.

الكاميرا، وتجعل فلسطين مستحيلة أكثر، ورخوة كبطن مبقور.

الكاميرا وأمراض الهوية العربية، وتفحص القلب البشري، والطلقة المصوبة نحو الصدغ، وعلاقة الود الخالص بالقتل.

الدوران في الغرفة بعد انتهاء لقمان من عرضه. تفاقم الألم في المعدة المقروحة. القيء. الخلل المستفحل في روحي المذبوحة، «مذبحة» كما جاء بالأجنبي على ملصق الفيلم، ما يعني شيئا منسيا بالعربي، ثم متى يحل الليل الساتر؟

مسألة تدبير رحيلي عن هذه البقعة من العالم كان يستحوذني. ثم رحت أدبّر ذلك مرة بعد مرة وبسيناريوهات مختلفة. بعد أيام سوف أكون بعيدة جدا عن هذا المكان، حيث كل شيء نظيف وجميل جدا، بلا دم، وحيث لا أحد يعرفني عربية، وهناك بإمكاني البكاء على ذوقي، وأحصي بهدوء وبحسب أقوال القتلة، حصيلة الأرواح ليومي ١٦ و١٨ أيلول سنة ١٩٨٢. هذا وقررت العمل كنادلة في إحدى الاستراحات لسائقي الكميونات الكبيرة، أي أحضّر وجبة سريعة للعابرين منهم. يجب أن يعبر الجميع من أمامي ولا يتريث أحد عندي أو يقف في وجهي، وأتظاهر بأنني صماء وبكماء لكي أنجو من التواصل مع البشر حتى مماتي.

من فيلم «المجزرة» للقمان سليم والألمانيين هـ. تايسون وم. بورغمان

عناية جابر